كتب

يرى الباحث البلجيكي في كتابه «المؤامرة والبحث عن الهوية»، الصادر حديثاً، أنّ الإيمان بالمؤامرة يعكس رؤية عن العالم والمبادئ التي نؤمن بها أكثر من كونها ناتجة عن تدخّل فاعلين محدّدين، وهذا ما يُمكن تفسيره من خلال الأوساط الاجتماعية والثقافية التي ينتمي إليها الفرد

كنزو نيرا في المؤامرة ونظريّاتها

هوس على قاع الهويات

نجم الدين خلف الله

في ظلّ حجم المآسي التي عانت وتعاني منها المجتمعات العربية، ازدهرت نظريات المؤامرة وانتشر الاعتقاد بأنّ كل ما يصيبنا هو نتيجة أفعال الآخر الذي يُجسّد الشر المطلق ويسعى للقضاء علينا. ومع ذلك، فإنّ هذا الشعور وما يتولد عنه من خطابات «ضحيّاتية» ليست حكراً على المجتمعات العربية ولا على الفئات المهمَّشة، بل بمثابة سردية تُرافق كل المجتمعات البشرية وتظهر بشكل خاص خلال فترات الأزمة وأوقات الشدّة.

ولهذا السبب، ازدادت الدراسات التي تتناول هذه الظاهرة من زاوية الآليات النفسية التي تُساهم في نشأتها وتجعلها تُهيمن على تفكير بعض الأفراد والجماعات. فمَن منّا لا يتذكّر الشائعات التي انتشرت بأن أحداث الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول 2001 لم تكن من تدبير «تنظيم القاعدة» بل من تخطيط الدولة العميقة في الولايات المتحدة الأميركية؟ وكذلك مَن لا يعرف الشكوك التي أُثيرت حول مقتل الرئيس جون كينيدي وحتى حول صعود الإنسان إلى سطح القمر؟ ثم ألا نزال نسمع عن الشكوك التي تحوم حول منشأ فيروس كوفيد-19 وظروف انتشاره في أصقاع العالم؟

في كل هذه الحالات، كان مبدأ المؤامرة مرتبطاً بالحالة النفسية للمجتمعات المتأثّرة. لكن هذا التفسير وحده لا يشرح الظاهرة بشكل كامل نظراً إلى تعدّد المضامين التي يمكن أن يتلبس بها مبدأ التآمر: من إسقاط طائرات إلى تفريخ جراثيم! ولذلك، اجتهد الباحث البلجيكي كنزو نيرا، المتخصّص في علم النفس الاجتماعي ودراسة محدّدات الهوية والانتماء، في كتابه «المؤامرة والبحث عن الهوية»، الصادر حديثاً عن «PUF» (مطبوعات الجامعة الفرنسية)، بإثبات أن هذه النظرية تنمو أيضاً بشكل وثيق حسب الأصول الثقافية والاجتماعية التي يتحدر منها الأفراد. بمعنى آخر، الإيمان بنظرية المؤامرة يعكس بشكل أكبر رؤية العالم والقيم والمبادئ التي نؤمن بها أكثر من كونها ناتجة عن تدخّل فاعلين محدّدين. والعقائد التي نحملها تعكس هويتنا الجماعية.

وأما الرهان المعرفي الذي سعى الباحث لإثباته في كتابه فهو أن الإيمان بنظرية المؤامرة لا يمثّل خروجاً عن القاعدة، بل يُمكن تفسيره من خلال الأوساط الاجتماعية والثقافية التي ينتمي إليها الفرد. كما أنّ هذا الإيمان يرتبط بالعلاقات الاجتماعية داخل مجموعة ما، وهو ما يعزّز الروابط بينها ويقوي أواصرها. وعلى غرار العقائد والإيديولوجيات الأُخرى، توحّد بين الأفراد وتشكّل «الإسمنت» الذي يلحم مختلف مكوّناتها. بل قد تتحول هذه النظرية إلى أداة لتعزيز الكبرياء والشعور بالفخر لدى المجموعة.

قسّم الباحث كتابه إلى ستة فصول: تناول في الأول منها ضرورة دراسة هذه الظاهرة علمياً وإخراجها من دائرة اللا-منطق والإيديولوجيا والنقد السهل إلى مجال الدرس التجريبي، فهي ليست «عيباً» يفضي بالأفراد إلى الهوس، بل ظاهرة اجتماعية يمكن ملاحظتها علميّاً.

في القسم الثاني، عالج المؤامرة في أدبيات علم النفس مستعرضاً أهم المقاربات السيكولوجية التي اهتمت بهذه الظاهرة وأسسها المنهجية والمعرفية. وفي الفصل الثالث، وهو جوهر الأطروحة، حلّل كيفية تدخّل الانتماءات الجماعية في تشكيل الهوية وعلاقة ذلك بنظرية المؤامرة، سواء بالإيمان بها أو رفضها. وانتقل في الفصل الرابع إلى علاقة هذه النظرية بالتفاوت الاجتماعي والطبقي، وكيف يمكن أن يكون الإيمان بها ردّ فعل الضعيف على القوي، وشكلاً من أشكال التمرد على آليات السلطة والهيمنة. ثم توسّع في الفصل الخامس في تحليل تأثير هذه النظرية في إدراك مظاهر التفاوت واللامساواة بين الطبقات والفئات، حيث توفر تفسيرات إيديولوجية لذلك. وأخيراً، في الفصل السادس، عاد الباحث إلى التصورات التي يحملها المؤمنون بنظرية المؤامرة عن أنفسهم، وهي تصورات تراوح بين الشعور بالفخر والإحساس بالاضطهاد. من هنا، يتضح أن هذا البحث هو استنطاق علمي للمحددات الاجتماعية التي تُنشئ وتغذي نظريات المؤامرة. لكن نيرا يؤكد أن هذه الظاهرة لا يمكن اختزالها في مقاربة واحدة نظراً لتعدد العوامل التي تصنعها، ولكنها تعود بشكل كبير إلى مبدأ التفاوت الذي يحدد بشكل كبير الإيمان بالمؤامرة من عدمه.

في مستوى المقاربة، أكّد نيرا ضرورة التطبيق الصارم للمنهج التجريبي الذي سبق لكلود برنار التنظير له، ولكن في مجال العلوم النفسية الاجتماعية. وخصص استطراداً لبيان أهمية هذا المنهج وكيفية تطبيقه على القائلين بنظرية المؤامرة وغيرهم من خلال تقسيمهم إلى فئات حسب معايير دقيقة ثم ربط الأسباب بالنتائج لملاحظة مدى تقاطعها وفق الظروف وإن كانت الأسباب نفسها تؤدي إلى النتائج نفسها، وأكد في الخلاصة نسبية هذا المنهج وحدوده نظراً إلى تعقد الوجدان البشري الذي يصعب إخضاعه لمقاربات تجريبية صارمة. وهكذا، تمكن الباحث من تقديم تعريف علمي للظاهرة بعيداً عن التصورات السلبية لها أو عن تضخيم المؤمنين بها.

فقد قام نيرا بإجراء بحوث ميدانية شاملة، حيث استعان بنتائج استبيانات مفصلة نفذها بمساعدة فريق عمله. كان الهدف من هذه الاستبيانات هو التأكد من وجود ارتباط بين ما سماه «العقلية التآمرية» والانتماء الطبقي، وذلك لضمان أن تكون استنتاجاته مبنية على أسس صلبة من الملاحظة والتجريب. وهو ما يضع الباحث وجها لوجهٍ أمام الأفراد المُستجوَبين حتى يجمع منهم كلّ المعطيات التي يُنسّبها بالمبادئ المعروفة في البحوث الميدانية، مثل وجود هامش للأخطاء والمتغيرات بحسب السنّ والجنس والمستوى التعليمي وغيرها.

وعطفاً على ما يشيع من نظريات مؤامرة في عالمنا العربي، لا يُمكن إنكار أن بعض مآسيه كانت نتاج تدخل غربي، مثل الاستعمار وزرع كيان مغتصب ثم تبرير جرائمه، وليست حرب غزة آخرها. هنا، تصبح المؤامرة مرتبطة بأفعال دول معينة ارتكبت انتهاكات مُوثّقة واتخذت مواقف دبلوماسية وتحركات عسكرية مسجلة. ولذلك فإدانة التواطؤ الغربي ليست اعتقادا في التآمر تعبيرا عن شعور جماعي، شعور العرب المتعاطفين وجدانياً مع القضية الفلسطينية بهدف تعزيز وحدتهم الرمزية، بل هي موقف أخلاقي وقانوني مطلوب في سياقنا الحالي والصمت عنه تواطؤٌ.

ولذلك، ينبغي ألا يتحول تحليل نظريات المؤامرة إلى تبرير للتواطؤ الذي تمارسه الدول الكبرى على حساب الشعب الفلسطيني الأعزل، كما مورس ضد شعوب سورية والعراق واليمن وغيرها، فكلها ذاقت ويلات هذه السياسات التي لا تخرج في تقاطعها وتكررها عن «اتفاق» ضمني وأحيانا صريح ومفضوح مبرم بين بعض دول الغرب. إلا أنّ الشأن كله في ألا تُربط هذه الممارسات العدائيّة بقوى خفيّة لا اسمَ لها وألا تُتَّهم تنظيمات عالميّة غيبيّة باقترافها، بل أن يحال عليها بشكل لا لبس فيه، يخرج الخطابَ من رهاب يرمي المسؤولية على آخرَ غائم. بكلمة، يجبُ ألا يتحول تحليل نظريات المؤامرة وانتقادها إلى حجب ممارسات التواطؤ والصمت والاصطفاف التي تقترفها دول «الاستكبار». وليس في هذا المصطلح ذرّة من اللاعقلانيّة التي انتقدها نيرا.

يُذكَر أنّ كنزو نيرا باحث بلجيكي شابّ، مُتخصص في علم النفس الاجتماعي، يُركّز في أبحاثه على نظريات المؤامرة وعلاقتها بالهويّات الاجتماعية والانتماء الثقافي، ويعمل حالياً كباحث زميل في «الجامعة الحرّة» ببروكسل، حيث يتعاون مع أوليفيه كلين في دراسة هذه النظريات وأصولها وجذورها النفسية. وقد شدّد في مقالاته الأخيرة على الطريقة التي يرى بها المؤمنون بنظريات المؤامرة أنفسهم وكيفية تعاملهم مع مواقف الازدراء التي تُوجّه إليهم.

(كاتب وأكاديمي تونسي مقيم في باريس)

الأوهام وإعاقة الفعل التاريخي

يتيح هذا النوع من الدراسات، رغم حدودها، فرصة للباحثين العرب المتخصصين في العلوم الاجتماعية والنفسية لبدء عملية توثيق وإحصاء شاملين لكلّ نظريات المؤامرة الشائعة في مجتمعاتنا، ومن ثمّة ربط هذه النظريات بأطرها التاريخية لفهم تطوّرها وتكاثرها، إذ الهدف النهائي من هذا العمل هو فتح الباب لتحرير الوعي العربي من بعض الأوهام، وتخليصه من العقد التي تعيق تحقيق الفعل التاريخي.

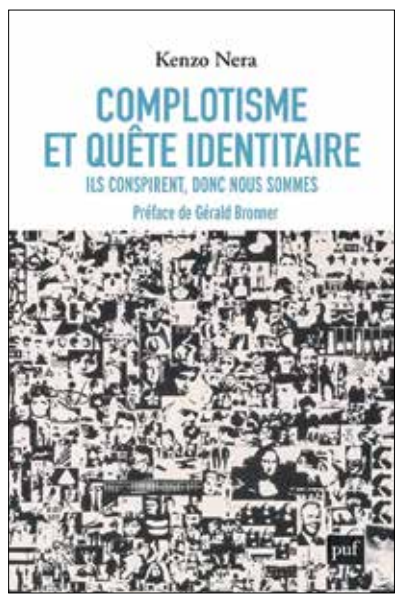

يرتبط مبدأ المؤامرة بالحالة النفسية للمجتمعات المتأثّرة

قد تتحوّل هذه النظرية إلى أداة لتعزيز تماسك الجماعة

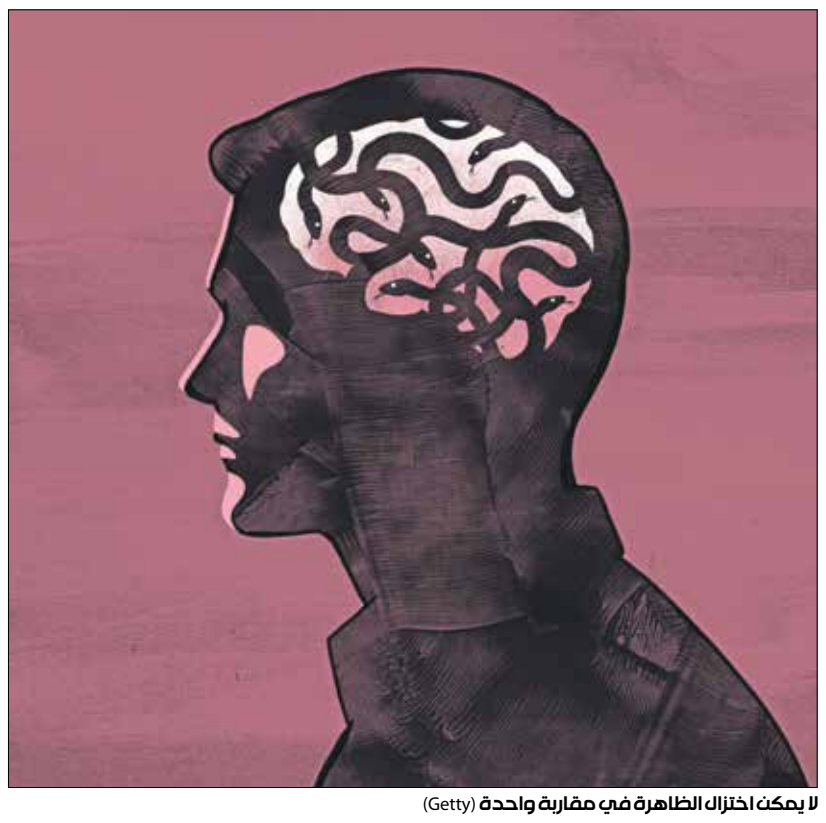
لا يمكن اختزال الظاهرة في مقاربة واحدة (Getty)

نظرة أولى

أوصلت المجازر الإسرائيلية في غزّة الإبادة البشرية والمادّية في فلسطين إلى مستويات غير مسبوقة، ولا يستطيع أحد اليوم أن يتذرّع بعبارة «لم نكن نعرف»، حيث ما زالت عوامل الاحتلال والاستيطان والتطهير العرقي تُشكّل النكبةَ الفلسطينية؛ وهي صدمة متواصلة تضع الشعب الفلسطيني منذ عام 1948 في حاضر دائم من العنف والسلب. تتعمّق المترجمة والباحثة الإسبانية **لوز غوميز** في كتابها «فلسطين: وراثة المستقبل»، الصادر عن دار «كاتاراتا»، في التاريخ الاجتماعي والسياسي لفلسطين لتشرح الظروف المادّية وغير المادّية التي تضمن استمرارها في الوجود.

«سمك ميّت يتنفّس قشور الليمون»، عنوان رواية للكاتب السوري **خالد خليفة** (1964 - 2023)، تصدر هذه الأيام عن «دار نوفل». هذه آخر رواية كتبها خليفة، وتُنشر بعد سنة من رحيله، وفيها يتحدّث عن مدينة اللاذقية السورية، بشوارعها وأزقّتها ومعالمها التي شوّه معظمَها الفساد الإداري وصفقات المقاولين، وينعى المدينة من خلال موت أحلام شبابها، وهُم شلّة موسيقيّين وشعراء وراقصة حاولوا إعادة بثّ الحياة في المدينة، لكن «لا أحلامهم الموسيقية تحقّقت، ولا قصص حُبّهم عاشت، ولا أفضى مستقبلهم إلى الإنجازات التي تمنّوها»، مثلما نقرأ في نبذة الكتاب.

بترجمة عمار الثويني، صدرت عن «دار المحيط للنشر» الطبعة العربية من كتاب «العرب وممالك ما قبل الإسلام»، بتحرير **كريغ فيشر**. يُضيء الكتاب تاريخ العرب منذ القرن الثامن قبل الميلاد حتى القرن السابع الميلادي، بالاعتماد على المصادر اليونانية واللاتينية والسريانية التي تعكس تنوّعاً في نظرة المؤرّخين القدماء لشبه الجزيرة العربية، وتراوح بين العِداء المُطلق والقراءة المتضمّنة شيئاً من الإنصاف بالحديث عن البيئات الاجتماعية والسياسية، وهو ما يجعل إرساء تفسير متوازن لتاريخ شبه الجزيرة في تلك الفترة تحدّياً صعباً تشوبه تفسيرات مركّبة.

عن «مركز دراسات الوحدة العربية»، صدر كتاب «مشاريع الطاقة الإسرائيلية في شرق المتوسّط وتحدّيات الأمن القومي العربي» للباحث الفلسطيني **عبد الله مصطفى المعلواني**. يتناول الكتاب الأطر النظرية والعملية للتفاعلات الدولية في منطقة شرق المتوسّط، ويحلّل الأحداث التي أعادت رسم خريطتها الجيوسياسية، وفتحت المجال أمام دمج «إسرائيل» وتعظيم مكانتها على حساب الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني والحقوق العربية في شرق المتوسّط، كما يبيّن محاولات الهيمنة الإسرائيلية على صناعة الطاقة وتحدّيات هذه الصناعة أمام الأمن القومي العربي.

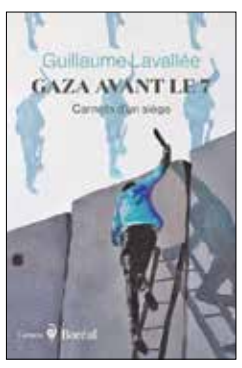

في كتابه «غزّة قبل السابع من أكتوبر»، الصادر بالفرنسية عن «منشورات بوريل»، يستعيد الصحافي الاستقصائي الكندي **غيوم لافالي** الوضع في غزّة قبل ذلك التاريخ، قارئاً المُسبّبات العميقة للعملية العسكرية التي قادتها «حركة حماس» صبيحة ذلك اليوم من العام الماضي، والتي ردّت عليها «إسرائيل» بحرب إبادة شاملة ما زالت مستمرّة إلى اليوم. يتحرّك مُراسل وكالة «فرانس برس» وصاحب كتاب «في بطن السودان» (2012)، في تحليله وفق أُطر تاريخية؛ من حصار قطاع غزة منذ عام 2006، إلى إعلان مشروع الاستعمار الاستيطاني لفلسطين إثر نكبة 1948.

يقارب الباحث السوري **أحمد محمد قدور** في كتابه «مطالعات في الدرس الصوتي»، الصادر عن «دار نينوى»، مسائل صوتية هامة في سبع مطالعات علميّة تهدف لتأريخ الدّرس الصّوتي وتجديده. وفي ظل الحاجة الماسة لإنشاء علم للأصوات العربية في ضوء المعارف الحديثة، يحاول الباحث أن يغوص في أصول هذا المجال الذي له أصوله الممتدّة في تيارات الثّقافة الإسلاميّة، ولا سيّما النّحو والصّرف، لكنه ما زال يفتقر إلى الاستقلال المعرفي. ولا يقلّل ذلك من شأن الجوانب الصّوتيّة التي حفلت بها مصادر العلوم على اختلافها، كعلوم اللغة والتّجويد والطّب والتّعمية.

يقدّم كتاب «أرخبيلات معرفية في الترجمة»، الصادر عن «دار خطوط» للباحث المغربي **عبد النور خرافي**، أفكاراً وتصورات أثّثت المشهد المعرفي في مجال الترجمة؛ فهو يعرض إلى التوجّس من الخوض في الترجمة أساساً، لما يحمل ذلك من مخاطر على الهوية، ويبحث في مزالق الترجمة الدينية وتجلياتها في مسألة المثاقفة؛ كما يرصد العلاقة القائمة بين الترجمة والتنمية، والخطاب البيداغوجي؛ لينتهي إلى مناقشة الترجمة الآلية، الموضوع الفتي الذي لم ينَل حظّه من الاهتمام بعد ومدى تأثيرها على جودة النصوص المُترجمة والفرق بينها وبين الترجمة التقليدية.

بتوقيع **محمد نجيب**، صدرت عن «منشورات نادي الكتاب» ترجمة رواية «لو اختفت القطط من العالم» للكاتب الياباني جينكي كاوامورا. يروي العمل قصّة شاب يعمل ساعيَ بريد ويعيش بمفرده مع قطّه بعد انفصاله عن حبيبته ووفاة أمه والقطيعة بينه وبين أبيه. يجد الشاب صعوبةً في تقبُّل حقيقة إصابته بالسرطان وأنّ أيامه باتت معدودة، لكن الشيطان يتجسّد أمامه ويعرض عليه إضافة يوم إلى حياته كلّما اختفى شيء من العالم. ومع بدء اختفاء الأشياء، يدخل الشاب في اختبار وجودي يُغيّر نظرته إلى جوهر الحياة، ويجعله يعيد اكتشاف المهمّ فيها ويتصالح مع ذاته وحياته.